الخطاب النبوي في ضوء آليات الحجاج

The prophetic speech In light of the mechanisms of pilgrims

أسحار إبراهيم عبد السلام

المديرية العامة لتربية الأنبار

ashar22099@gmail.com

Ashar Ibrahim Abd El-salam

Directorate General of Anbar Education

الملخص

الخطاب النبوي نسيج وحده بعلو فصاحته بيانه وسياقته واتقانه، ففيه تقام الحجة ويحضر الاقناع والتأثير، والخطاب النبوي حظي بعناية الباحثين ، بيد أن الجانب الحجاجي فيه بحاجة الى دراسة تستجلي كوامنه وتفتح آفاقه لا سيما أنه يتوافر على كل وسائل الإثارة والإقناع والتحاور فالحجاج سمة في الخطاب النبوي؛ اذ اتكأ الرسول ((صلى الله عليه و سلم)) بسليقته اللغوية والبيانية، على آليات الحجاج المتنوعة كالاستفهام والتشبيه والتمثيل وضرب المثل والنظائر والاستلزام والنهي والامر وغيرها كأليات للحجاج ووسائل له هدفها الاقناع والتأثير ونقل المعنى من الحالة التصويرية العادية إلى الحالة التصديقية من المعنوي الى الحسي.

الكلماتُ المفتاحيّة: الخطاب، النبوي، آليات، الحجاج.

Abstract

The Prophet’s discourse is a fabric alone with the height of its eloquence، its clarification، its lucidity، and its mastery. In it، the argument is established، and persuasion and influence are present. The prophet’s discourse has received the attention of researchers، but the argumentative side in it needs a study that explores its potential and opens its horizons، especially since it is available on all means of excitement، persuasion، and dialogue. Arguments are a characteristic of discourse. Prophetic

As the Messenger (may God bless him and grant him peace)، in his linguistic and graphic manner، relied on the various mechanisms of pilgrims، such as interrogation، simile، representation، proverb، analogy، implication، prohibition، order، etc.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد:

فيعد الخطاب النبوي بما يضمه من أحاديث وقصص المصدر الثاني من مصادر التشريع وقد ورد بأسوب بياني رفيع بشهادة قائله صلى الله عليه وسلم (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش) ولا غرو فقد اجتمع فيه ضروب البلاغة وافانين الكلام هذا من جهة، ومن جهة ثانية فيه قوة الحجة والتأثير والاقناع؛ لطبيعة الخطاب وهدفه الديني ورسالته التوجيهية للبشرية جمعاء وقد صدق الجاحظ في قوله: « لم يَسْمع الناسُ بكلامٍ قَطّ أعمَّ نفعاً، ولا أقصَدَ لفظاً، ولا أعدلَ وزناً، ولا أجملَ مذهباً، ولا أكرَم مطلباً، ولا أحسنَ موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوَى، من كلامه –صلى الله عليه وسلم – «

فالخطاب النبوي فيه مزيا فريدة فهو قمة في البيان وآية في الفصاحة والاتقان، مع اقامة الحجة وحضور الاقناع والتأثير، وكان الجانب البياني محط انظار الباحثين قديما وحديثا بيد أن الجانب الحجاجي فيه بحاجة الى دراسة تستجلي كوامنه وتفتح آفاقه لا سيما أنه يتوافر على كل وسائل الإثارة والإقناع والتحاور مع ظهور نظريات الحجاج وتعدد مداخلها في الخطاب النبوي، فالحجاج سمة في الخطاب النبوي؛ اذ اتكأ الرسول ((صلى الله عليه و سلم)) بسليقته اللغوية والبيانية، على آليات الحجاج المتنوعة كالاستفهام والتشبيه والتمثيل وضرب المثل والنظائر والاستلزام والنهي والامر وغيرها كأليات للحجاج ووسائل له هدفها الاقناع والتأثير ونقل المعنى من الحالة التصويرية العادية إلى الحالة التصديقية، من المعنوي الى الحسي.

فالبيان النبوي يتوافر في لغته على مساحة عريضة من الحوار فاغلبها محض

أسئلة يسألها الصحابة للنبي صلى الله عليه تسمح لحضور الأدلة والحجج والبراهين وتسمح من جهة أخرى للمتلقي المشاركة من خلال كثرة الاضمارات فيها ومحاولة اشراك القارئ في عملية التأويل والتخييل؛ لذا فإن هذه البحث يحاول دراسة الخطاب النبوي في ضوء النظرية الحجاجية ،واستنطاق بنيته الحجاجيّة واظهار أبعاده الوظائفية والكشف عن الآليات التي وظّفها – صلى الله عليه وسلم – لتحقيق ذلك في خطابه؟ وما مدى نجاح حجاجيّتها في اقناع القارئ أو المتلقي والتأثير فيه؟ وقد استدعت طبيعة البحث أن ينتظم في تمهيد كشف عن معنى الحجاج وآلياته في التراث العربي والغربي ثم محاور توزعت فيها بعض آليات الحجاج و الأفعال الكلامية واللغوية كالاستفهام، والأمر، والنهي، ،فضلا عن التمثيل وغيرها من الاساليب التي تتضح فيها آليات الحجاج، اذ ضمن النّبي – صلى الله عليه وسلم – الأفعال الكلامية في حديثه على نحو كبير ، وقد تباينت ما بين توجيهات وإخباريات والتزاميّات ، وسنعمد ان شاء الله للكشف عن دورها في إحداث الإقناع والتأثير في المتلقي، وهم الصحابة في وقت الخطاب والأمة الاسلامية في الوقت الحاضر.

التمهيد : (مفهوم الحجاج وأهميته)

الحجاج والحجة في اللغة : «الحُجَّة هي البرهان وقيل الحُجَّة هي ما دوفع به الخصم ..... وحَاجَّهُ مَحَاجَّة وحِجَاجًا نازعه الحجّة... وجمع الحجة: حجاج وحجج، وفي الحديث: فحجّ آدم موسى أي: غلبه»[1] وورد في مقاييس اللغة لابن فارس (ت٣٩٥ هـ): «الحاء والجيم أصولٌ أربعةٌ. فالأول القصدُ. وكلُ قصدٍ حجٌ... يقال حَاجَجتُ فُلانًا فَحَجَجتُهُ أَي غَلَبتُهُ، وذلك الظفر يكون عند الخصومة والجمع

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، ط ١٩٩٧، م ٢، ص ٢٨، مادة (حجج). ،٢

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

حُجَجٌ، والمصدر الحِجَاجُ»[1]

أما في الاصطلاح فالحجاج مفهوم عائم يتصف بعدم الاستقرار، فله أكثر من تعريف وهو مصطلح حديث نسبيا اذ أستعمل في نهايةِ حقبة الخمسينيّات من القرن العشرين؛ تزامنا مع ارساء مُحاولاتٍ ايجاد قواعد لعلمٍ دراسةِ الخَطابةِ بأنماطها وتنوعاتها؛ اذ عرف حاييم بيرلمان الحِجاج تعريفا شدد فيه على بيان وظيفتِه، وهي إقناعُ المُتلقِّي بما يبدو له من خلال الخِطابِ الحِجاجيِّ؛ وذلك لكسب واستمالة عقله، والتأثيرِ في سلوكِه، وبذلك يصبح للحِجاج مفهومان: الأوّل: التحليل والاستدلال، وتقديم المسوغات؛ للتأثير في الاعتقاد والسلوك. والثاني: عمليّة التفاعل مع الآخرين، بوساطة المَنطق؛ رجاء التأثيرِ فيهم[2]، وعرف (برلمان وتتيكا) الحجاج بأنّه: «جملة الأساليب التي تضطلع في الخطاب بوظيفة حمل المتلقّي على الإقناع بما نعرضه عليه، أو الزيادة في حجم هذا الإقناع لغاية أساسية هي الفعل في المتلقي على نحو يدفعه إلى العمل أو يهيّئه للقيام بالعمل»[3]

غاية الحجاج وأهميته:

إنّ الهدف من النظرية الحجاجية هي استمالة المتلقي أو القارئ، بوصفه اللبنة الأساسية في العملية الحجاجية، فالعناية بمستوى الخطاب الحجاجي هو الركن الاساسي الذي يحمله المتكلم أثناء إنجازه للفعل خطابي؛ ولما «كانت الغاية

(١) : مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت ١٩٧٩، مادة حَجَجَ، ج٢، ص ٢٩-٣٠

(٢) ينظر: مصطلح الحجاج بواعثه وتقنياته، عباس حشاني- مجلة المخبر ابحاث في اللغة والأدب لجزائري - كلية الآداب واللغات - قسم اللغة العربية- ص ٢٦٧-٢٦٩.

(٣) الحجاج في الشعر القديم من الجاهلية إلى القرن الثالث الهجري، سامية الدريدي عالم الكتب الحديث، الأردن، ط ١، ٢٠٠٧، ص ٢١

من الحجاج هي إثارة مستمع ما واستمالته نحو الأطروحات المراد تزكيتها أو زيادة التزكية، وليس استنباط النتائج من بعض المقومات، فإنها لا تدور في فراغ، إنّها تقتضي تماسكا فكريا بين الخطيب والمستمع، ينبغي للخطاب أن يكون مسموعا و لكتابٍ ما أن يكون مقروءا، إذ بدون هذا يغدو تأثيرها صفر»[١]، فالإبانة والإيضاح هي من الضروريات التي يقوم عليها بناء الخطاب الحجاجي ..

إنّ تنوع المتلقين للنص واختلاف مقامات الخطاب، و ظروف بنائه، تجعل الحجاج يتلون بالوان مختلفة ؛ «فهو عرضة للتغيير و التحوير في بنائه و اتساقه الذي يقوم عليه؛ و ذلك تبعا لتغير المقام و تغير ظروف المحاجج، حتى و إن ظلّ النقاش هو ذاته»[٢]، فكل مقام يفرض على المتكلم طرقا خاصة و حججا نوعية يرى فيها المتكلم غايته في الإقناع و التأثير. وعلى الرغم من ذلك فأن المتكلم حين ينشأ خطابه فهو لا يقوم في هذه الحالة بتحديد أو اختيار المتلقي، أو يفرض على مخاطبه تلقي الرسالة بمعنى محدد؛ لأنّ الخطاب يكون مفتوحا للتأويل، قد يخرج عن مقصد المتكلم أو يتعارض معه، فيمسه التغيير والتبديل بالحذف والزيادة[٣]، كما يتطلب من المتكلم الالمام بأحوال المتلقي لأحداث التأثير والاقتناع التي هي الغاية الاساسية من الحجاج؛ بوصف المتلقي عنصرا فعالا لا يثبت على حال «والمتكلم لا يستطيع تخيل هذا الخطاب ما لم يكن

(١) الحجاج في الدرس اللغوي، مجلة علوم إنسانية، أ- بوزناشه نور الدين - جامعة اسطيف- الجزائر - السنة السابعة العدد ٤٤- شتاء ٢٠١٠، ص ٢٣

(٢) : مفهوم الحجاج عند بيرلمان و تطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد محمد الأمين، مجلة عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت - مج ٢٨، ع - مارس ٢٠٠٠ص- ١٢٩

(٣) ينظر: الاستعارة في محطات يونانية و عربية و غربية، محمد الولي، دار الِامان، الرباط - المغرب، ط ١ / ٢٠٠٥، ٣٧١ .

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

على دراية عميقة بأحوال المخاطبين الراهنة، و بموروثهم الثقافي و الحضاري و بهموم مستقبلهم، فمن مقومات الحجاج الاهتمام بالمتلقي و أحواله، كونه العماد الذي تقوم عليه العملية الإقناعينة والحجاجية»[1]

الحجاج في الموروث العربي :

نظرية الحجاج في موروثنا العلمي لم تكن منفصلة عن المنجز اللغوي والبلاغي والديني والنحوي لذا فأن فالحجاج والياته كان مبثوتا في تضاعيف العلوم الاخرى التي اتسم منهج تأليفها بالشمولية فلم يكن الدرس البلاغي مثلا منعزلا عن كتب الاعجاز القرآني وفي المقابل لم يكن الحجاج منفصلا عن المنظومة المعرفية التراثية، وينبغي التمييز بين تصورين هما: الحجاج بوصفه ممارسة تواصلية وبين الحجاج بوصفه مفهوما يمتلك تنظيراته الخاصة، والمتتبع لتجلياته في التصور الأول يكتشف كثيرا من صور الحجاج على مستوى التخاطب والتكلم والمناظرة والجدال، وقد بين ابن خلدون ان الحجاج وفق هذا الصورة مبحث مهم من مباحث العلوم كلها وهو حاجة مهمة اذ «احتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون فاستدلا، وكيف يكون مخصوصا فانقطعا، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت، ولخصمه الكلام والاستدلال؟ ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه، سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره» [2] .

(١) مفهوم الحجاج عند بيرلمان و تطوره في البلاغة المعاصرة، ص ٦٩ .

(٢) المقدمة- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولي الدين - تحقيق: عبد الله محمد الدرويش: دار يعرب: ١٤٢٥ - ٢٠٠٤ - ط١ - مج ٢- ص ٥٠٠

أما اذا بحثنا عن الحجاج بوصفه ممارسة منظمة تمتلك تنظيراتها الخاصة فلابد أن نلتفت جهود الجاحظ في البلاغة والبيان فهو من الاوائل الذين أدرجوا الحجاج في التخاطب مع الأخذ بنظر الاعتبار ان الجاحظ خص الحجاج بنصيب من الممارسة في تحليلاته وشواهده كلها، زيادة على حسن اختيار اللفظ الكفيل بتحقيق الغرض المتوخى - الإقناع - وكل ذلك يتم بمراعاة فصاحة اللفظ، ومعرفة أحوال المتخاطبين ومستوياتهم، وكذا مناسبة المقال للمقام.[١] وقد أهتم علماؤنا عموما بالأثر الناتج عن الكلام وبالشروط التي تجعل الخطاب ناجحا، كما أحتفى بالمرسل والمتلقي، إذ تتجلى جذور الحجاج عندهم من خلال تقسيمهم البيان العربي إلى ثلاث وظائف واهتمامهم أكثر بالوظيفة التأثرية وقوة الاحتجاج والاقناع[٢]، وعلى الرغم من هذا الاهتمام الكبير بالحجاج وتوظيفاته فلم نجد كتابا مختصا في الحجاج في التراث العربي الذي اتسمت مؤلفاته بالشمول والتداخل، لكن بطبيعة الحال نحن لا نعدم من وجود مرادفات لمصطلح الاحتجاج ذات صفة بيانية وبديعية كالاستدلال، والتقسيم، والتوكيد، والنفي، والتعليل، والشرط؛ وبما عد الاحتجاج نفسه أسلوبا بديعيا، وثمة مصطلحات في قواعد اللغة العربية قريبة الشبه من الحجاج كالدليل، والقياس، والعلة، والطرد، والعكس، والتعليل، والمعارضة، والنقض، والمقابلة، والاستدلال بعدم الدليل، والاستدلال بالنظر وعدم النظر، وفي علوم الشريعة هناك مساحة واسعة من

(١) استراتيجيات الحجاج في التراث العربي نماذج من البلاغة العربية -: زيار فوزية- المشرف: أد- عبد الحليم بن عيسى- جامعة وهران أحمد بن بلة-: مجلة اللغة والاتصال - المجلد ١٣ العدد ٢٢ جوان ٢٠١٨

(٢) ينظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، ١٩٩٩م، ص٠٠٥.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

الاستعمال لمصطلح الحجاج بمرادفاته كلها؛ لحاجة هذا العلم للاحتجاج والنظر (١)، فقد وردت في الخطاب القرآني اليات حجاجيه كثيرة؛ نظرا للبيئة التي أنزل فيها القرآن الكريم ولطبيعة الخطاب القرآني الاعجازي الذي جعل منه «نصا يناظر نصوصا ويحاور مرجعيات ويجادل ثوابت كان لها فعلها في تاريخ شبه الجزيرة العربية الثقافي زمن الدعوة في بواكيرها»(٢). وتوافر القرآن الكريم على سمات اعجازية متفردة صيرته «خطاباً حجاجياً، مما جعل الحجاج يصيب كثيرا من العناصر اللغوية فيه مثل الكلمات والتراكيب والصور....»(٣).

وقد تعددت أمثلة الحجاج فيه على نحو مباشر، مع كثرة مخاطَبيه اذ أنزل على قوم أهل لغة وبيان وحجة واستقامة لسان فكانوا كثيري جدل وحجة، وقد خاطبهم المولى بقوله: «ها أَنتُم هَؤُلَاءِ حَاجَجتُم فِيمَا لكُم بِهِ عِلم فَلِمَ تُحاجُّونَ فِيمَا لَيسَ لكُم بِهِ عِلم وَاللَّهُ يَعلَمُ وَأَنتُم لَا تَعلَمونَ، مَا كَانَ إِبرَاهِيمُ يَهُودِيا وَلَا نَصرَانِيا وَلَكِن كَان حَنِيفا مسلِما وَما كَان مِنَ المُشرِكِين»(٤)

آليات الحجاج في القصّة النبوية

تتسم اللغة العربية بخصائص مميزة لا تكاد تتوافر كلها في لغة أخرى فهي تتجاوز الوظيفة التواصلية لتشكل وسيلة تأثير في السّلوك، فيغدو الكلام ذا تأثير في المتلقي تجعلنا لا ننظر الى الجانب الجمالي وحسب وانما نهتم بالجانب التأثيري أو الاقناعي أيضا وهذا الفعل التّأثيري للغة يتضح من خلال الصّيغ اللغوية،

(١) الكافية في الجدل- الجويني ابو المعالي تحقيق: خليل عمران المنصور- دار الكتب العلمية - بيروت- ١٩٩٩ ص: ٢١
(٢) الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل بحث في الأشكال والاستراتيجيات، علي الشبعان- دار الكتاب الجديد، ط١، ليبيا ٢٠١٠م، ص ٥٢.
(٣) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة - دار الفارابي، ٢٠٠١م ١٤٢٢هـ - ط١- ص ٤١.
(٤) سورة آل عمران - الآية ٦٦- ٦٧

والبلاغية المختلفة أهمها: أفعال الكلام التي تؤدي وظيفة الإقناع عن طريق قوّتها الإنجازيّة [١]، «فالأساليب البلاغية قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي لتؤدي وظيفة ليست جمالية إنشائية وحسب، بل وظيفة إقناعية استدلالية، ومن هنا يتبين أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية ولإنجاز مقاصد حجاجية لإفادة أبعاد تداولية»(٢) وفي هذا البحث سوف نقوم باختيار نماذج من الاحاديث النبوية ممن تتوافر فيها بعض من الأفعال الكلامية واللغوية كالاستفهام، والأمر، والنهي، ،فضلا عن التمثيل وغيرها من الاساليب التي تتضح فيها آليات الحجاج .

وقد ضمن الخاتم المرسل – عليه الصلاة والسلام – الأفعال الكلامية في حديثه على نحو كبير ، وقد تباينت ما بين (توجيهات وإخباريات والتزاميّات)، وسنعمد – ان شاء الله تعالى– للكشف عن دورها في إحداث الإقناع والتأثير في المتلقي وهم الصحابة في وقت الخطاب والأمة الاسلامية في الوقت الحاضر.

أولا: التوجيهات بأسلوب الاستفهام

ورد التوجيه بأسلوب الاستفهام كثيرا في حديث النبي (عليه الصلاة والسلام) لدواع مختلفة من بينها الاقناع والتأثير واقامة الحجة كحديث الرسول الأمين عليه أفضل الصلاة والتسليم للأنصار حينما اشتكو له أن أصحاب الاموال ذهبوا بالأجور، لأن عندهم ما يتصدقون به اذ قالوا :

«يا رسولَ اللهِ ! ذهب أهلُ الدُّثورِ بالأجورِ، يُصَلُّون كما نصلي، ويصومون كما نصومُ، ويتصدقون بفضولِ أموالِهِم،

(١) في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، خليفة بوجادي، بيت الحكمة، –الجزائر– ٢٠٠٩،، ط ١، ص ٩٤

(٢) التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صابر الحباشة،– صفحات للدراسات والنشر، سورية، ٢٠٠٨، ص ٥٠

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

قال: أَوَلَيْس قد جعل اللهُ لكم ما تَصَدَّقُون؟ إن بكلِّ تسبيحةٍ صدقةً، [وبكلِّ تكبيرةٍ صدقةً، وبكلِّ تهليلةٍ صدقةً، وبكلِّ تحميدةٍ صدقةً]، وأمرٌ بالمعروفِ صدقةٌ، ونهيٌ عن منكرٍ صدقةٌ، وفي بُضْعِ أحدِكم صدقةٌ! قالوا: يا رسولَ اللهِ! أيأتي أحدُنا شهوتَه ويكونُ له فيها أجرٌ ؟ ! قال: أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه فيها وزرٌ ؟ [قالوا: بلى، قال:] فكذلك إذا وضعها في الحلالِ كان له [فيها] أجرٌ، [وذكر أشياءَ: صدقةً، صدقةً، ثم قال: ويُجْزِئُ من هذا كلِّه ركعتا الضُّحَى] (١)

فالهمزة في الحديث جاءت لتقرير المعنى وتوكيده، فقوله صلى الله عليه وسلم (أليس.....) ضرب من الأسلوب الإنشائي الطلبي نمطه استفهامي ،خرج لإفادة النفي والتقرير، وجيء بلفظ الاستفهام لإنكار النفي في (ليس) بغية المبالغة في الإثبات، والمراد تثبيت ذلك في الخواطر وزيادة اقناعهم به، فالحديث به إثبات وليس نفيا، لأن الهمزة توحي الإنكار الذي يفيد النفي وليس النفي وحسب فيصبح جحود هذا النفي إثباتا. وغاية الرسول صلى الله عليه وسلم من هذا الاسلوب بيان أن الاذكار صدقات في قيمة الاجر على سبيل المقابلة وتجنيس الكلام، وهو يريد اقامة الحجة على الذين يظنون أن الموسرين من أهل الدثور هم من فاز بالأجور والصدقات، ثم يأتي الاستفهام المشفوع بالتعجب في قول الصحابة (أيأتي أحدُنا شهوتَه ويكونُ له فيها أجرٌ ؟) ومسوغ الصحابة ومراجعتهم وسألوهم ليس انكارا للوحي وكلام النبي صلى الله عليه وسلم بل لتأكيد المعنى لعدم علمهم بحكمه، والنبي صلى الله عليه وسلم من خلال هذا الاسلوب أراد أن يرفع عن اذهان

(١) صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر): مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت عدد الأجزاء: ٢ باب الزكاة ص ١٦٢

من يظن أن العبد يؤجر حين يمتنع عن الحرام وحسب، غير مدرك أن من يأتي الحلال مأجور أيضا فجاء الخطاب معتمدا على التقابل والتناظر، بمقابلة الحجة بالحجة (قال: أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه فيها وزرٌ ؟ [قالوا: بلى، قال:] فكذلك إذا وضعها في الحلالِ كان له [فيها] أجرٌ ،) واحتج النبي صلى الله عليه وسلم بالقياس والاضداد و مقابلة الامر المستقر في أذهانهم أنه حرام وهو قضاء الوطر في غير الزوجة بالأمر الذي يجهلون أنه حلال وفيه صدقة وهو اتيان الزوجة فالزمهم الحجة بذلك وقابل بين أمرين، وبين أيضا بالحجة والدليل أن الصدقات ليست وقفا على الاغنياء وأنها ليست أمولا وحسب، وانما الفقير اذا ما ملك لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا فذلك كله مما يجلب الصدقات .

وقد يسوق النبي صلى الله عليه وسلم البراهين والادلة العقلية الواقعية لمن يستفهم من شيء لا يتصور وقوعه فقد ورد في الاثر «انَّ رَجُلاً قالَ: يا نَبِيَّ اللَّهِ، كيفَ يُحْشَرُ الكَافِرُ علَى وجْهِهِ؟ قالَ: أليسَ الذي أمْشَاهُ علَى الرِّجْلَيْنِ في الدُّنْيَا قَادِرًا علَى أنْ يُمْشِيَهُ علَى وجْهِهِ يَومَ القِيَامَةِ قالَ قَتَادَةُ: بَلَى وعِزَّةِ رَبِّنَا»[1].

وظاهر السؤال يدل أن الرجل الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم أرد بـ(يحشر على وجهه) المشي على وجه الحقيقة والدليل ان النبي صلى الله عليه وسلم أجابه: («أليسَ الذي أمْشَاهُ علَى الرِّجْلَيْنِ في الدُّنْيَا قَادِرًا علَى أنْ يُمْشِيَهُ علَى وجْهِهِ يَومَ القِيَامَةِ») والسؤال هنا مسوغ ففي جبلة بني آدم «انكار كل ما لم يأنس به، ولو لم يشاهد الانسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر التصور المشي على غير رجل، والمشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد

(١) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي – تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ عدد ج٤– ص ٦٩

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

ذلك ،فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة...»[1] والحجة في حشر الكافر على وجهه أن الوجه هو المأمور بالسجود لله تعالى ولما كان الكافر لا يسجد لله تعالى فعوقب من جنس العمل بأن يسحب على وجهه إهانة له وعقوبة[2] ثم أن المختار صلوات الله وسلامه عليه أحتج بقدرة الله تعالى فالذي جعل الانسان يمشي على قدميه فالدنيا بقادر على أن يجعله يمشي على وجهه بالأخرة فأحكام الدنيا مختلفة تماما عن احكام الأخرة وهذه حجة دامغة فأن المتصورات والمدركات والعقول لا يمكن أعمالها في امور الغيب والبعث والنشور .

ومن دعائم الداعية قوة الحجة والقدرة على دفع الشبهة، واستعمال وسائل الاقناع التي يفهمها المدعو فعن أبي أمامه رضي الله عنه قال: «إن فتى شابًّا أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه! فقال: ((ادنه))، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: ((أتحبه لأمك؟))، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ((ولا الناس يحبونه لأمهاتهم))، قال: ((أفتحبه لابنتك؟))، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: ((ولا الناس يحبونه لبناتهم))، قال: ((أفتحبه لأختك))، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ((ولا الناس يحبونه لأخواتهم))، قال: ((أفتحبه لعمتك؟))، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ((ولا الناس يحبونه لعمَّاتهم))، قال: ((أفتحبه لخالتك))، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ((ولا الناس

(١) احياء علوم الدين – محمد بن محمد الغزالي أبو حامد – دار المعرفة بيروت – ٤/ ٥١٤
(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي نحقق: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب عليه – دار المعرفة – بيروت،١٣٧٩ ج: ١٣ / ٣٦٣

يحبونه لخالاتهم))، قال: فوضع يده عليه، وقال: ((اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصِّن فَرْجَه))، فلم يكن بعد - ذلك الفتى - يلتفت إلى شيء» (١)

تقوم البنية التركيبية للحديث الشريف على الاستفهام الذي يعد من الآليات التوجيهية؛ بوصفها توجّه المرسل إلى ضرورة الإجابة عنها، فيوظفها المرسل للتأثير في المخاطب وتوجيه سياق الأحداث، والسيطرة على ذهن المرسل إليه، وتسيير الخطاب تجاه ما يريده المرسل، وتعدّ الأسئلة الاستفهامية المغلقة من أهم الأدوات اللغوية الاستراتيجية ورد التوجيه بأسلوب الاستفهام كثيرا في حديث النبي (عليه الصلاة والسلام) لدواع مختلفة من بينها الاقناع والتأثير واقامة الحجة والتوجيه(٢) فالنبي عليه الصلاة والسلام يتوقع ان اجابة الشاب الذي جاء يريد الزنا ستكون في صالح خطابه التوجيهي وهو يعلم الاجابة يقينا فهذه الأسئلة» ليست استفهاما عن مجهول لأنّه لا يجهل شيئا من هذه المعارف، بل هي حجج باعتبار قصد المرسل لا باعتبار الصّياغة والمعنى الحرفي فقط»(٣)

بيد أن توظيف الاستفهام هنا بوصفه اسلوبا حجاجيا جعل الشاب هو من يرفض ضمنا الاذن بالزنا من خلال اقامة حجة عقلية تقوم على الاشباه والنظائر فاذا كان الشاب لا يرض الزنا لأحد من ذويه فهو قطعا لا يرضاه في اعراض الناس، والقصة بينت أن الرفق بحال المدعو لا سيما من غلبته شهوته هو أدعى ليستكين ويرتدع ليس خوفا أو حياء، بل قناعة ويقينا بأن ما هم بفعله ليس من المروءة والأدب والحياء بشيء .

(١) صحيح مسلم ج١/١٩٨

(٢) ينظر:، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية - عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط ١/ ٢٠٠٤، ص. ٣٢٤

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٨٥

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

وهذه القصة باستعمالات الحجج العقلية والقياس على الاشباه تتجاوز اطارها الزماني الذي حدثت فيه وحدودها المكانية فهي قصة موجه لكل من غلبت عليه شهوته وأراد أن يفتك بأعراض الناس تلبية لهذه الشهوة فعلية أن يتذكر أن له أعراضا لا يرض أن تدنس، وشرفا لا يريد له أن يثلم .

وبدا إنّ النّبي – صلى الله عليه وسلم – جمع أساليب الإقناع ووسائل الإمتاع في قصصه فضمن لها رقي المضمون وجمال الاسلوب ودقة التعبير مع قوة الحجة وجلاء البرهان فكانت آية في التأثير والاقناع والارشاد ذلك كله في ايجاز وكلم قليل المبنى غزير المعنى في غير تكلف ولا تعنيف، فيه الحجة والبيان والتوجيه والتربية واستعمال الاساليب البلاغية المشفوعة بالمثل والتشبيه والاستعارات والكنايات التي ترتفع بالكلمات عن الفجاجة والمباشرة وعن الهذر والاطناب فالنبي صلى الله عليه وسلم بكلمات موجزات يضرب مثلا يعلم فيه الناس ركنا مهما من اركان الاسلام مؤشرا على أهميته فقد أخرج البخاري ومسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمساً، هل يُبْقي من درنه شيئاً»، وفي رواية عند مسلم «هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقي من درنه شيئاً قال: كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[1]

فالنبي صلوات ربي وسلامه عليه يقيس الصلاة وما يتبعها من مكفرات بنهر جار في باب أحدنا نغتسل منه خمس مرات والاغتسال لا يكون الابعد الاتساخ وكذا الصلاة فهي طهارة للبدن حسا ومعنى قال ابن عربي في هذا الحديث « ان المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة والأحوال المشاهدة في بدنه

(١) صحيح البخاري ج٢- ٢١١

وثيابه، فيطهره الماء الكثير العذب اذا والى استعماله، وواظب على الاغتسال به، فكذلك تطهر الصلاة العبد من اقذار الذنوب حتى لا تبقي له ذنبا الا اسقطته وكفرته»[١]

واستعمال الرسول الاكرم عليه الصلاة والسلام لهذا القياس والمثل يرفد خطابه النبوي بـ «جملة الأساليب التي تعتمد قوانين المنطق والتي تؤدّي إن اعتمدناها في الخطاب إلى إقناع المتلقي بما طُرح عليه من أفكار وما عرض عليه من آراء»[٢]

ثانيا – الالتزامات

إنّ توجيه السّلوك وجهة معيّنة يتطلب التزاما ووعدا من المتكلم حتى يكون الإقناع أسهل والتأثر التأثير أكبر والاستجابة أسرع، وهي تعني الزام المتكلم نفسه بإنجاز فعل مستقبلي، أي يلتزم «بفعل شيء تجاه المخاطَب طوعا، وتمثّله أفعال الوعد والوعيد والضّمان والإنذار»[٣] وهي أفعال تتّجه نحو المتكلم .

وقد وردت في القصة النبوية افعالا الزاميا كثيرة جدا على نحو غير مباشر لاسيما في أفعال الوعد والوعيد ووصف أحوال أهل الجنة والنار وهي أوصاف الزامية تنذر متلقي الخطاب النبوي بصورة غير مباشرة، إذ تقوم على عقد حالة مقارنة ذهنية بينه –أي القارئ أو متلقي الخطاب – و صورة في القصّة من يعذب النبوية أو يخصه الوعيد، والنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك كله لم يتبن إنجاز الوعد الوعيد بنفسه، وإنما هو مبشر ومنذر أما الثواب والعقاب فمردها

(١) عارضة الاحواذي بشرح صحيح الترمذي – ابن العربي المالكي (ت ٥٤٣) دار الكتب العلمية بيروت – ١٠– ٣١٥

(٢) الحجاج في الشعر بنيته وأسلوبه، سامية الدريدي – عالم الكتب الحديث– الأردن– ط٢ – ٢٠٠١١ ص ١٦٣

(٣) دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم، بوفرومة حكيمة، مجلة الخطاب جامعة مولود معمري– الجزائر—ع ٣ –ماي– ٢٠٠٨دار الأمل للطباعة – ص ١٦

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

الى الله ،لذا فأن هذه الافعال أتت على هيئة مدح للفاعل أو عقاب له أو إظهار العاقبة والجزاء «وهذه الأمور دالة على طلب الفعل في الأمور المحمودة وطلب التّرك في الأمور المذمومة»[1] وهي لا توجه بشكل مباشر لمتلقي الخطاب وانما سيقت على نحو قصة تبين هيئة أحوال أهل الجنة والنار في حديث الاسراء والمعراج الطويل بأسلوب يحمل رسائل مضمرة للمتلقي وهي تشكل طاقة حجاجيّة تساند المتكلم لتحقيق هدفه، يقول (أوستين): «يجوز إيقاع التّهديد أو التّخويف ... في الحالات التي يمكن فيها أن نحثّ الآخر أو نقنعه أو نجعله يطيع أو يعتقد في أمر ما»[2] ومن صور الافعال الكلامية التي تحمل هذا المعنى ما جاء في حديث الاسراء والمعراج الطويل كهذه الصورة من الحديث:

«هلْ رَأَى أَحَدٌ مِنكُم مِن رُؤْيا قالَ: فَيَقُصُّ عليه مَن شاءَ اللَّهُ أنْ يَقُصَّ، وإنَّه قالَ ذاتَ غَداةٍ: إنَّه أتانِي اللَّيْلَةَ آتِيانِ، وإنَّهُما ابْتَعَثانِي، وإنَّهُما قالا لي انْطَلِقْ، وإنِّي انْطَلَقْتُ معهُما، وإنَّا أتَيْنا علَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وإذا آخَرُ قائِمٌ عليه بصَخْرَةٍ، وإذا هو يَهْوِي بالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ ها هُنا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فلا يَرْجِعُ إلَيْهِ حتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كما كانَ، ثُمَّ يَعُودُ عليه فَيَفْعَلُ به مِثْلَ ما فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى قالَ: قُلتُ لهما: سُبْحانَ اللَّهِ ما هذانِ؟ قالَ: قالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ قالَ: فانْطَلَقْنا، فأتَيْنا علَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفاهُ، وإذا آخَرُ قائِمٌ عليه بكَلُّوبٍ مِن حَدِيدٍ.....»[3]

(١) دراسة الافعال الكلامية – ص ١٦

(٢) نظرية أفعال الكلام العامة: كيف ننجز الأشياء بالكلام، جون لانكشو أوستين، تر:عبد القادر قنيني، ط٢ ،أفريقيا الشرق، الدار البيضاء – المغرب، ٢٠٠٨ ص. ١٣

(٣) صحيح مسلم ج٢– ص ٢٣١
« هلْ رَأَى أَحَدٌ مِنكُم مِن رُؤْيا قالَ: فَيَقُصُّ عليه مَن شاءَ اللَّهُ أنْ يَقُصَّ، وإنَّه قالَ ذاتَ غَداةٍ: إنَّه أتانِي اللَّيْلَةَ آتِيانِ، وإنَّهُما ابْتَعَثانِي، وإنَّهُما قالا لِي انْطَلِقْ، وإنِّي انْطَلَقْتُ معهُما، وإنَّا أتَيْنا علَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وإذا آخَرُ قائِمٌ

فكلمة (رجل) التي وردت في الحديث نكرة والنكرة في سياق العموم تقتضي التعدد وربما هي تعني كل رجل، وهذ يوحي بأن المتلقي معني بالإنذار والوعيد فهناك حالة من الاقتران والمشابهة بين مصير هذا الرجل الذي يعذب ومصيرنا نحن جميعا اذا ما اقترفنا ذات الاسباب التي عذب بها كل هذا العذاب فعلينا جميعا كمتلقين أن نتوجه شطر السلوك الايجابي وتبني جانب الخير والصلاح والايمان وهو المراد غير المعلن من سوق هذه القصة، ويقف في الجانب الاخر من مشهد هذا الوعيد مشهد للوعد يظهر مآل أهل التقوى والصلاح والفوز والفلاح، في قوله صلى الله عليه وسلم «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمدّ له في جسمه ستون ذراعا، ويبيض وجهه ويجعل على رأ سه تاجا من لؤلؤ»[١]

فالوعد والوعيد في القصة السابقة يمثلان حجة على المتلقي فهو بصر بالطريق وعرف النتائج فهذه القصص استشراف لمصير لم يقع لنا بعد وهي وصايا قيمة وامثلة حقيقية لجانبي الخير والشر، وهي في صورة الوعد تمثل حافرا قويا للصبر والعمل الصالح وفي جانب الوعيد تمثل رسائل انذار وتحذير فالوعد والوعيد « يهدف إلى الإصلاح وإيقاظ العقول، وله مقاصد تتمثل في التّأثير على أفكار المتلقّي وأفعاله وجعله يخضع لأوامر الله ونواهيه»[٢].

عليه بصَخْرَةٍ، وإذا هو يَهْوِي بالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ ها هُنا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فلا يَرْجِع.....»

(١) مسند أبي يعلى -: أبو يعلى أحمد بن علي بن المُثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ) تحقيق: حسين سليم أسد -: دار المأمون للتراث - دمشق الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ - ج ١١ - ص٤

(٢) دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم، ص ١٧

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

فالأفعال الكلامية في القصص النبوي القائمة على التوجيه والارشاد على نحو غير مباشر أخذت صفة الاستمرارية على مدار الزمان والمكان فهي ليست وقفا على معين ولا مقتصرة على زمن النبوة

ثالثا: الاقيسة والنظائر

«أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ، وإنِّي أَنْكَرْتُهُ، فَقالَ له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: هلْ لكَ مِن إبِلٍ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: ما أَلْوَانُهَا؟ قالَ: حُمْرٌ، قالَ: فَهلْ فِيهَا مِن أَوْرَقَ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: فأنَّى هُوَ؟ قالَ: لَعَلَّهُ يا رَسولَ اللهِ، يَكونُ نَزَعَهُ عِرْقٌ له، فَقالَ له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: وَهذا لَعَلَّهُ يَكونُ نَزَعَهُ عِرْقٌ له»[1].

وهذا يوضح حُسنَ تبيان النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتوضيحه اذ قارن أصلاً مَعلومًا بأصلٍ مشاهد؛ ليُفهِمَ السَّائلَ؛ اذ بين للأعرابيِّ الذي أنكَرَه من سحنة الغُلامِ بما علم مما تلده الإبلِ، فأوضح له بما يَعرِفُ أنَّ الإبلَ الحُمرَ تنجب الأغبَرَ، فكذلك المرأةُ البيضاءُ تنجب الاسمر.[2]

وفي هذه القصة حجة واقامة دليل مبني على الاقناع لا سيما أن الامثلة والأقيسة المضروبة من واقع حياة الاعرابي وحياة الناس في ذلك الزمن فلا اعتبار لحديث الوراثة والطفرة الوراثية وانتقال الجينات، وأن ما حدث هو طفرة جينية، أى شذوذ للشفرة الوراثية عن المألوف، فهذه المعلومات لا تتفق مع بيئة الاعرابي ومستواه العقلي، فإقامة الدليل من الواقع المعاين أدعى لإقناع الاعرابي، فقال ابن بطال: «شبه ما ينكر من لون لغلام بما عرف من نتاج الأبل ... فأبان له

(١) صحصح البخاري – ص ٩٦

(٢) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري- بدر الدين العيني الحنفي (ت: ٨٥٥هـ) –: دار إحياء التراث العربي – ج٣ ص ١٧٧

النبي صلى الله عليه وسلم بما يعرف من الأبل الحمر تنتج الأورق أن كذلك المرأة البيضاء تلد الأسود»[١]، ورأي ابن القيم في جواب النبي صلى الله عليه وسلم حجة داحضة للأعرابي فمن صور الاقناع «كيف تضمن الغاء هذا الوصف الذي لا تأثير له في الحكم وهو مجرد اللون، ومخالفة الولد للأبوين فيه، وأن مثل هذا لا يوجب ريبة وأن نظيره في المخلوقات مشاهد بالحس ...كما أن الجمل الاسود يتولد من أبوين أبيضين، وان ما جوز به من سبب ذلك في الأبل هو عينه قائم في بني آدم»[٢]

وفي الحديثِ: توظيف القياسِ، والاخذ بالأشباهِ، وضَربُ الأمثالِ. وفيه أيضا اسلوب التقرير وهو من اشد الاساليب في الاقناع واقامة الحجة فالنبي يسأل الرجل من باب من يعرف الامر بيد أنه يريد أن يقرره على ما يقول فمن البديهي أن للأعرابي أبل ولكن مع معرفته جاء سؤال النبي عليه صلوات ربي وسلامه: هلْ لكَ مِن إبِلٍ؟ فجاءت الاجابة بـ: نَعَمْ، ثم سأله ثانية: « ما أَلْوَانُهَا؟ قالَ: حُمْرٌ، قالَ: فَهلْ فِيهَا مِن أَوْرَقَ»[٣]؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: فأَنَّى هُوَ يعنى كيف ذلك ؟ قالَ الاعرابي: لَعَلَّهُ يا رَسولَ اللهِ، يَكونُ نَزَعَهُ عِرْقٌ له، والاعرابي هنا هو من فسر هذا التعجب وازال الابهام، فَقالَ له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: وَهذا لَعَلَّهُ يَكونُ نَزَعَهُ عِرْقٌ له

(١) - أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك ابن بطال القرطبي: شرح صحيح البخاري - تحقيق: أبو تميم ياسر بن ابراهيم - مكتبة الرشد - السعودية ط٢- ١٤٢٣- ٢٠٠٣- ٣٦١/١٠

(٢) بدائع الفوائد: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ):تحقيق: علي بن محمد العمران - دار، بيروت، لبنان ج١ ص ١٠١

(٣) الَأوْرَقُ من الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

رابعا: التمثيل: التمثيل من الوسائل الحجاجية المهمة فهو يحمل قدرة اقناعية عالية؛ لأنه يقرب المجردات بمقارنتها بالمحسوسات ويعرض صورا متجاورة يسهل على المتلقي أدراكها واستيعابه «فبحسن الألفاظ واختلافها على المعنى الواحد ترصّع المعاني في القلوب، وتلتصق بالصّدور، ويزيد حسنه وحلاوته وطلاوته بضرب الأمثلة والتّشبيهات المجازيّة»[١]، ويحتل التمثيل دورا حجاجيا كبيرا في تجسيد القيم الجديد أو التأكيد على قيم موجودا في الاصل كقيمة المجتمع المترابط المتراص ذا المصير الواحد وهو كما يرى بيرلمان «يبدو من المحال جدا الاستغناء عنه كلما تطرق العقل لميدان جديد وغير مألوف»[٢] فليس لأسلوب كالتمثيل القدرة على ربط المجردات بالمحسوسات فالتمثيل يقوم بأسقاط «علاقات مستفادة سابقا على مجال مجهول أو يبدع علاقات جديدة من منطلق تشابه ما، فالذهن ينظر إلى ما يجري أمامه من خلال الأحكام التي تكونت فيه على ضوء الخبرة السابقة ولا تعرف بدون إسقاط المعروف، ولا وجود لذهن فارغ»[٣] .

وقد استند النبي «صلى الله عليه وسلم» بقريحته اللغوية والبيانية على «التمثيل كوسيلة حجاجية ذات تأثيرات في المسلمين من جهات عدة، فهو ينقل العقل من المعنى في الحالة التصويرية إلى الحالة التصديقية، فيؤدي إلى نفي الريب والشك عن المتلقي ولما كانت غاية الرسول، «صلى الله عليه وسلم» هي التبليغ و التأثير في المسلمين، نجده

(١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين السيوطي – تح: محمد أحمد جاد المولى ، دار الفكر ، بيروت. ٣٨، ج ١ ، ص ٣

(٢) التحاجج (طبيعته ومجالاته ووظائفه) :حمو النقارى – الناشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط – مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء– ط١– ٢٠٠٦ص ٢

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩.

«صلى الله عليه و سلم» يتفنن في صياغته للتمثيل معتمدا على أحدث تقنيات الحجاج»[١] وعلى الرغم من بلاغة اللفظ النبوي وفصاحته وقدرته على ايصال المعنى المراد فأن المعنى بحاجة الى وسائل حجاجية مساندة تثبت المعنى وتقرب صورته للمتلقي كالتمثيل والتشبيه في حديث السفينة فضرب النبيِّ ﷺ مثلا بقوله: « مَثَلُ القَائِمِ فِي حُدودِ اللَّه، والْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سفينةٍ، فصارَ بعضُهم أعلاهَا، وبعضُهم أسفلَها، وكانَ الذينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الماءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصيبِنا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرادُوا هَلكُوا جَمِيعًا، وإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِم نَجَوْا ونَجَوْا جَمِيعًا « ففي هذا الحديث مثل النبي صلى الله عليه وسلم المجتمع بالسفينة العائمة في عباب البحر بعواصفه الهوجاء والاعاصير، والأمواج المتلاطمة المتدافعة. وهذه الصورة قريب من صورة المجتمع الاسلامي الذي يعيش وسط مجتمعات متباينة المشارب مختلفة الاتجاهات والتوجهات يتوجب عليهم التآزر وضم الصفوف والحفاظ على قيمه ومثله من التآكل والتأثر بالوافد الجديد فأي تهاون من أهلها يؤدي بالسفينة إلى التلاشي والغرق في مجاهل البحر فكذا المجتمع المسلم فهو قريب من حال السفينة وركابها هم افراد المجتمع وحياتهم غير مفصولة عن السفينة ومصيرها، فكما أن ركاب السفينة يحرصون على سلامتها؛ لارتباط حياتهم بحياتها وسيرها؛ فكذلك أفراد المجتمع يجب أن يحرصوا على مجتمعهم حرصَهم على حياتِهم. وهنا تتجسد الحجة من خلال هذا التمثيل فلا مناص من حماية المجتمع والقيام بأمر الدعوة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالضرر الذي يلحقه بعض

(١) موضع التمثيل من الحجاج في الحديث النبوي الشريف – زقنون نصيرة– مجلّة اللّغة العربيّة وآدابها– ٢٠١٨ /٠٥ /١٥

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

الافراد في بنية المجتمع ليس فرديا وليس حرية شخصية فأن عواقبه تضر المجتمع كله.

ولا ريب أن التمثيل وسيلة حجاجية في عرف البلاغيين، وهو ليس بمصطلح حادث في الدرس البلاغي، بل تكرر ذكره في مواطن متناثرة من كتب البلاغة والبيان، وقد أثبت أهليته منذ وقت مبكر عبد القاهر الجرجاني في قوله : «وأعلم أن مما أتفق عليه العقلاء أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، و اكسبها منقبة، و رفع من أقدارها، وشبّ. من نارها، و ضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها»[1]، و هذا مما يشير به إلى أثر فعله في النفوس و دوره في تحديد وجهتها

(١) أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) تحقيق: محمود محمد شاكر -: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ص ١١٥ .

فالتمثيل بهذا « إذا حُمّل بعدا استدلاليا، كأن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على حجته»[2]، وسر بلاغة التمثيل تتجلى بوصفه حجة عقلية إقناعية تأثيرية، لا تدرك بالتصريح و إنما من خلال التلميح و التأويل و الاستدلال، والتمثيل يؤثر في المعاني، ويبدو فضله «في طريق إثبات المعنى دون المعنى»[3]، فهو يعمل على تثبيت المعنى الضمني للملفوظات[4]. ففي حديث النبي صلى الله عليه وسلم ثمة معان والفاظ أراد تثبيتها لأهميتها فعمد الى التمثيل فهو أنجع الاساليب لبيان عظم الصلاة

(٢) كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج- رسائله أنموذجا -، علي محمد علي سلمان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ؛، ٢٠١٠

(٣) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر الناشر: مكتبة الخانجي - مطبعة المدني، ص ٦٤ .

(٤) ينظر: كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج- رسائله أنموذجا -، ص٧٧

ومكانتها اذ يقول: «أَرَأَيْتُمْ لو أنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ منه كُلَّ يَومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هلْ يَبْقَى مِن دَرَنِهِ شيءٌ؟ قالوا: لا يَبْقَى مِن دَرَنِهِ شيءٌ، قالَ: فَذلكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بهِنَّ الخَطَايَا.»(١)

تقوم حجية الحديث الشريف على صورة التشبيه التمثيلي القائمة على المماثلة اذ شُبِّه النبي صلى الله عليه وسلم التطهر خمس مرات؛ لذهاب الأوساخ والدرن الحسي والنفسي بإقامة الصلوات الخمس، والمماثلة هنا لا تعني التطابق الكلي فهي تعتمد تارة على الصورة الجزئية وتارة على الصورة الكلية، فأما الملامح الجزئية فمنها: اسلوب المجازُ المرسلُ في قوله «يغتسل فيه»، فليس المقصود أن يغتسل في النهر كلِّه بطوله وعرضه ،بأن يَسْبَحُ فيه من بدايته إلى نهايته، بل المقصود في جزء منه، لتعبر الكلية في النهر بعموم الجسد وتمام الطهارة وكمالها، ومنها: الاستعارة المكنية في جملة «يبقى من درنه، ولا يبقى..» فهي تفيد أن للنهر تأثيرا بالغا و فاعلا كالإنسان؛ لتنظيف الجسد وتطهيره، فيغطي البدن خمس مرات، حتى لا يبقى من درنه شيء، ومنها: صورة الاستعارة التصريحية في «يمحو بها الخطايا» «و من درنه شيء»، ومنها: صورة الاستعارة التصريحية في «يمحو بها الخطايا» فمعلوم أن الخطايا وهي جمع خطيئة أمر معنوي، والازالة والمحو لا يكون إلا للحسي، فوردت العبارة في صورة محسوسة للتأكيد على غفرانها جميعها، صغيرها وكبيرها وهذا هو الراجح عند العلماء .

وتستند بنية الحديث على قرائن حجاجيه متنوعة منها الاستفهام بالهمزة في صدر الحديث النبوي الذي تجاوز فيه الاستعمال الحقيقي في الاجابة عن السؤال فأفادت معان كثيرة منها: جلب انتباه السامع لضرورة موضوع الصلاة والتهيؤ لها بالطهارة والغسل، بوصف الوضوء

(١) صحيح مسلم ص١٩٠

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

شرطا من شروط صحة الصلاة فلا صلاة لمن لم يتوضأ ومنها أيضا: تثبيت التقرير والالزام، فليس المقصود بالاستفهام الإجابة عن السؤال فحسب، بل المقصود أيضًا أن هذه التربية البدنية، والحث على القيم الاجتماعية والخلقية، أمر مستقر وثابت ومقرر، لمن اقام الصلاة بعد الغسل والوضوء خمسة أوقات في اليوم، فالاستفهام بالهمزة استعمال مقصود فهي تفيد التحقيق والقطع، فلا مجال هنا للتردد والظن، في أهمية الصلاة في غفران الذنوب كما لا شك في أن الاغتسال خمس مرات يطهر البدن . وقد تكرر في الحديث الفعل المضارع (يغتسل- يبقى- يمحو) للدلالة على تكرار الغسل وتجدده واستمراره، ثم العموم في لفظ «يغسل» غير المقيد، ودلالته على تنوع الغسل، ليشمل جميع البدن أو معظمه، أو الاكتفاء بأعضاء الوضوء فقط، وللإشارة الى أمكانية الاستمرار بطهارة الأوساخ الحسية في البدن والثوب، فضلا عن الطهارة المعنوية، فهو أمرر متجدد مع المرات الخمس، وفيه دليل على أن باب التوبة مفتوح ما لم يغرغر العبد ، فالتمثيل يتسم بكونه يصل بين صورتين ليتمكن المرسل من الإحتجاج فقد قال عنه الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة: « وأعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصاء في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، ... وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ... فإذا كان مدحا، كان أبهى وأفخم، ...، وإن كان حجاج، كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر وبيانه أبهر»(١) ويبدو التمثيل عند عبد القاهر الجرناني وسيلة حجاجية ناجعة ن فيما يحسبه (بيرلمان): «طريقة حجاجية تعلوا قيمتها على مفهوم المشابهة المستهلك، حيث لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة

(١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني تح: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، ط٢، ١٩٩٩، ص٨٨ .

دائما، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مرتبطة»(١). وهنا يتجاوز التمثيل وظيفته التقليدية في الاتيان بالمتشابهات وحسب الى صور التمثيل ذو الوظيفة الحجاجية حديث النبي صلى الله عليه وسلم: :» إِنَّما مثَلُ الجلِيس الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ: كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طيِّبَةً، ونَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَن يَحْرِقَ ثِيابَكَ، وإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُنْتِنَةً»(٢) تقوم بينة الحديث على عرض المتماثلات على نحو ثنائيات ضدية فالتقابل حاصل بين جليسين، بين جليس صالح وجليس سوء، فلا مناص من أحد صنفي الجلساء – وهذه حجة الزامية للمتلقي – ولكل جليس مثل فما مثلهما ؟؟، ثم يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بمثل مقابل لكل صنف من الجلساء فالجليس الصالح كحامل المسك والجليس السيء كنافخ الكير، والعلاقة بين التقابلين نستطيع أن نطلق عليها تقابل التقابل وطرفاه هما: الجليس الصالح = الجليس السوء – وحامل المسك= نافخ الكير.

ثم يحضر الخطاب الحديثي لهذه بالقرائن الحجاجية، فحامل المسك لا بد وأن ينتفع جليسه منه بفائدة؛ إما صغيرة أم كبيرة، فجليس حامل المسك لابد أن يخرج بنتيجة ايجابية أقلها نفحة من طيب أو يبتاع شيئا نافعا أو في أدنى أحواله يزكي أنفه بطيب ما يشم.

(١) عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج – عبد السلام عشير– إفريقيا الشرق، المغرب، ط١، ٢٠٠٦ ،ص ٩٧.

(٢) صحيح البخاري ص ٩٥

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

الخاتمة

اتكأ الرسول ((صلى الله عليه وسلم)) بسليقته اللغوية والبيانية، على آليات الحجاج المتنوعة كالاستفهام والتشبيه والتمثيل وضرب المثل والنظائر والاستلزام والنهي والامر وغيرها بوصفها أليات للحجاج ووسائل له هدفها الاقناع والتأثير ونقل المعنى من الحالة التصويرية العادية إلى الحالة التصديقية من المعنوي الى الحسي، اذ ضمن الخاتم المرسل – عليه الصلاة والسلام – الأفعال الكلامية في حديثه على نحو كبير، وقد تباينت ما بين (توجيهات وإخباريات والتزاميّات).

ومن امثلة التوجيه أسلوب الاستفهام الذي ورد كثيرا في حديث النبي (عليه الصلاة والسلام) لدواع مختلفة من بينها الاقناع والتأثير واقامة الحجة، فوظفها المرسل للتأثير في المخاطب وتوجيه سياق الأحداث، والسيطرة على ذهن المرسل إليه، وتسيير الخطاب تجاه ما يريده المرسل، وتعدّ الأسئلة الاستفهامية المغلقة من أهم الأدوات اللغوية الاستراتيجية

وتضمنت القصة النبوية أيضا افعالا الزاميا كثيرة جدا على نحو غير مباشر لاسيما في أفعال الوعد والوعيد ووصف أحوال أهل الجنة والنار وهي أوصاف الزامية تنذر متلقي الخطاب النبوي بصورة غير مباشرة .

وقد استند النبي «صلى الله عليه و سلم» بقريحته اللغوية والبيانية على «التمثيل كوسيلة حجاجية ذات تأثيرات في المسلمين من جهات عدة، فهو ينقل العقل من المعنى في الحالة التصويرية إلى الحالة التصديقية، فيؤدي إلى نفي الريب والشك عن المتلقي ولما كانت غاية الرسول، «صلى الله عليه وسلم» هي التبليغ و التأثير في المسلمين، نجده «صلى الله عليه و سلم» يتفنن في صياغته للتمثيل معتمدا على أحدث تقنيات الحجاج.